من كتب الشرق والغرب

قصة عشرين قرنا (١)

لقد نشر أخيراً فى بريطانيا كتاب عجيب هو من نسج الخيال ، ولكنه ليس برواية قصصية . وسلسلة الحوادث التى يتألف منها الكتاب تمتد إلى ألفى سنة تمر على قسم خاص من بريطانيا .

وفى هذا المقال نريد أن نصف موضوع الكتاب وأسلوبه إذ ينتظر أن يكون نجاحه كبيرا .

نشر فى شهر فبراير كتاب هو من نسج الخيال ولكنه ليس برواية قصصية ، بل هو فى الحقيقة سلسلة قصص تختلف كل منها عن الأخرى ، ولكنها مرتبطة بعضها ببعض ؛ لأنها حدثت فى مكان واحد من أقسام انجلترا على مر عصور تبلغ ألفى سنة . فالحوادث حدثت فى شمال لانكشير فى تلك البلاد الوعرة الموحشة التى تكتنف نهر لون . ففى تلك البلاد فتح المهندسون الرومانيون الطريق سنة ٨٥ بعد الميلاد ليربطوا حصون ديڤا ومانكونيوم بقواعد أجريكولا والمستودعات الحربية فى أطراف كاليدونيا . ويبدأ الدكتور ادوارد فرانكلاند مؤلف هذا الكتاب قصته برجل يعمل فى غابة تنحدر تدريجاً نحو نهر لون ، وهنا يصف المنظر الذى تقع فيه الحوادث فى أثناء العصور المختلفة إلى سنة ١٩٣٧ .

فهو يكتب :

« كان طنين الذباب الغاضب فى الجو يختلط بالخرير الرقيق لمياه النهر . وفى داخل الوادى تسمع النقير المنتظم لوقع الفؤوس وصوت تكسر الأحجار والصخر ، وبين حين وآخر دوى سقوط إحدى الأشجار . وكانت الشمس تميل نحو التلال الوعرة فى الغرب ، وهى التى غطتها الغابات إلى القمة وكان الجو ثقيلا وعطنا بين أشجار البلوط القديمة يخالطها عبق زهور المراعى والأشجار المتكسرة » .

وقد أظهر المؤلف مهارة كبيرة فى اختيار منظر كتابه فى ذلك القسم من انجلترا الذى ظل محتفظاً بطابعه إلى اليوم ؛ فشمال لنكشير لم يتغير كثيراً منذ عشرين قرنا ، وهنالك سبب أقوى من مجرد اختيار بضعة أميال من الأرض تكون فى سنة ١٩٣٧ مماثلة لما كانت عليه فى سنة ٨٥ بعد الميلاد .

---

(١) *The Story of Twenty Centuries*, by Frank Tilsley.

ذلك أن المؤلف أراد أن يبرهن أن الناس فى وجوه كثيرة متشابهون فى هذه الفترة الطويلة من التاريخ ، وأن جذورهم واحدة وإن بعدوا فى الزمن والعادات والبيئة والأخلاق ، وأن بعض الصفات والنزعات استمرت قائمة بحكم عناد الخلق الانجليزى ، وأنها قوية الآن بل هى أقوى مما كانت من قبل ، ولم يكن مجرد مصادفة أن سمى هذا الكتاب « انجلترا فى النمو »(١) .

كان الدكتور فرانكلاند حكيما جداً فى أنه لم يعمل على التاثير فى قرائه ؛ فقد كان من السهل عليه أن يخلق أشخاصاً متشابهين فى الظاهر من جيل إلى جيل ، ولكن دكتور فرانكلاند يعمل ما هو أهم من هذا كثيراً ، فهو ينصرف إلى بيان السبب الذى حمل هؤلاء الرجال والنساء على المسلك الذى سلكوه ، وهو يبحث عن هذه الأسباب فى الأرض التى عاشوا عملوا فيها وفى تاريخ الأزمان التى كونتهم والتى كونوها هم بدورهم .

ووصفه فى كتاباته للمناظر الريفية قوى وبعيد عن العاطفة وخال من التصنع ، فهو لا يكتب إلا لغرض :

« كان ذلك فى مساء أحد أيام الخريف فى سنة ٥١٥ . وظهرت التلال المجللة بالغابات على جانب الوادى كأنها بساط من البلوط النحاسى اللون والزان الأصفر وشجر الروان الأحمر . وقد نما البلوط الصغير الآن حتى صار ماردا يغطى جوانب الوادى . وربما كان هذا علامة على تقلص المجهود الانسانى لا فى وادى نهر لون وحده بل فى ولاية بريطانيا الرومانية القديمة بأسرها . وكانت القرية لا تزال قائمة هنالك ، ولكن لم يبق منها إلا بضعة عشر من الأسقف المدببة ترتفع فوق الحائط الذى يكاد يغطيه اللبلاب والنباتات المتسلقة . وكان الطريق مرسوما بدقة وهو يمر بين الحشائش . وقد صار المستنقع مجرد أثر أخضر صغير تقلص أمام انحسار المياه » .

ونرى الطريق الرومانى القديم قائما على مر القرون ولو أنه صار فى أماكن منه مجرد ممر ، والقرية تنمو ثم تضمحل ويدمرها المغيرون ويحرقها الاسكتلنديون .

وفى القرن الرابع عشر يتعب صاحب الأرض من البيوت الخشبية التى احترقت خمس مرات فى مدى ذكرى البشر ، فيبنى قاعة متسعة ذات برج من الحجر ، وهذه تظل قائمة كجزء من دار صاحب الضيعة الذى تحدث له تغييرات كثيرة فى القرن الحالى . وبما أن الكثير من الحجارة التى بنى بها البرج هى من حجارة منازل قديمة فى القرن الأول فبذلك وجدت صلة تربط عصور الرومان والسكسون والدانمركيين والنورمان بعصور أسرة تيودور الماكرة وعصور الفرسان الشجعان والرجال الذين عاشوا فى أول حكم الملكة فكتوريا وفى القرن العشرين .

وتجد زوجة ناظر المدرسة مرتبطة إلى دار أجداده برباط عميق سرى هو نداء الدم ، وهذا الرباط يستعصى فهمه وتحليله حتى على المنطق العادى المجرد .

ورجال هذا الوادى هم خليط خشن ، فمنهم أسرة « أوتويت » التى بنت دار صاحب الضيعة الأول ، ومنهم المزارع بريت وهو رجل غليظ ولكنه يمثل روح ذلك الاستقلال العنيد

---

(١) *England Growing.*

والتحدى غير المعقول الذى يدفع بالرجل الانجليزى إلى سلاحه ، ومنهم فرانسيس أوثويت الذى قاتل أنصار كروموبل الحديديين فى سبيل الملك شارل ، ولم يكن ذلك عن اعتقاد بأنه يدافع عن جانب الحق بل لأنه لا يريد ان يرى الرجال يقاتلون فى معركة وهو واقف موقف المتفرج . وإننا لنجد متأصلة فى الخلق الانجليزى تلك الكراهية للسلامة على حين يبذل الآخرون دماءهم ، ولقد بذل فرانسيس أوثويت دمه فى هذا السبيل .

ولقد عرضت لوسى أوثويت نفسها للمنفى من أجل اليعقوبيين فى حين طورد زوجها وهو رجل شجاع من رجال أعالى أسكتلندة ، حتى لقى حتفه ، وذلك فى زمن كانت الحياة فيه فى الوادى مستقرة وأكثر رخاء من أى زمن سابق .

حتى إذا ما جاء دور مسز بنتام السيدة المهذبة التى عاشت فى لندن فى عصر فيكتوريا نجد أنها كرهت ذلك الموقع « فهنا فى الشمال نجد الطبقات الدنيا تتدخل بوقاحة فى حياة الانسان ، فأصواتهم العالية المتوحشة لا تنخفض فى حضرة السادة . والواقع أنهم يكادون يظهرون استقلالا ثورياً فى مسلكهم ويظهرون من الاحتقار أكثر من التطلع عند رؤيتهم أجانب تبدو عليهم مظاهر الرخاء » .

ولكننا نرى أن بيت أوثيت آخذ فى الاضمحلال وأنه صار مهجوراً، إلى أن تأخذ زوجة ناظر المدرسة فى القصة الأخيرة فى ترمه .

وليست إنجلترا فى القرن العشرين بالعصر الذهبى للدور الأثرية ، ولكن من المستحيل ان نقرأ كتاب الدكتور فرانكلاند من غير أن نصل إلى نتيجة هى أنه عصر مزدهر للرجال والنساء، إذ أن هنالك صفة أساسية فى جميع أشخاص هذا الكتاب يشتركون فيها من قرن إلى قرن ، وهى أن المحن تظهر فضائلهم ، وهى نوع من التحدى ترفع من نفوسهم وكأنهم يتقبلون جزءاً من مصيرهم .

فكتاب الدكتور فرانكلاند إذا كان يصف زمناً يمتد عشرين قرناً فانه كتاب هذا الزمن ، وأعتقد أنه سيكون محط الأنظار فى هذا الشهر .

(مقال خاص للمجلة ترجمة ح . م .) فرانك تابسلى

الأدب الفرنسى فى عهد الاحتلال

عاشت فرنسا بأسرها أكثر من أربعة أعوام طوال ترسف فى القيود تحت نير الاحتلال . فمنذ شهر يونيو سنة ١٩٤٠ خيم صمت عميق على باريس مدينة اللهو الصاخب والعلم الزاخر والفكر الرفيع ، وأصبحت بين عشية وضحاها مدينة الأتراح بعد أن كانت موطن الأفراح . حط عليها صمت رهيب ثقيل وخفت صوتها ، وانقطعت كل صلة بينها وبين العالم الخارجى ، فلم يسمع عنها أولا إلا ذلك الأنين الحزين أنين شعرائها المنتحبين ، فعرف الناس أن الحياة لم تفارقها بعد وأن أنفاسها لا تزال تردد صيحة الحرية والأمل . ثم ارتفع ذلك الأنين الذى ظنه الغزاة حشرجة ، ارتفع رويداً رويداً حتى ملأ أجواز الفضاء وعم فرنسا كلها ، فأضحى صرخة تدوى فى السماء تصم الآذان وتهتف بزوال الذل وبشن حرب عوان على الخونة والغزاة الفاتحين .

أخذت فرنسا تفيق شيئاً فشيئاً من ذهول الصدمة الأولى وهول الكارثة التي حلت بها، فاجتمعت فئة من الكتاب الذين لم يذعنوا لسلطان القوة الناشئة ولا لأمر تكميم الأفواه، وأسسوا في الخفاء داراً للطباعة والنشر لاصدار الكتب وتوزيعها، للحض على المقاومة ولبث الأمل في النفوس، ولحمل شعلة الفكر التي إن ذوى وهجها فجذوتها لا تنطفىء أبداً. تألفت تلك الجمعية من كتاب وشعراء عديدين مختلفي المشارب مؤتلفي المآرب ينتسبون لكل الأحزاب السياسية، ولكنهم يبتغون جميعاً الوصول إلى المقاصد القومية، فكان منهم الشيوعي مثل الشاعر آراجون، وكان منهم الكاثوليكي مثل الروائي فرانسوا مورياك طووا الجوانح على الحزازات القديمة ووحدوا كلمتهم على الخلاص من ربقة الاستعباد. أقاموا داراً للنشر سموها « دار منتصف الليل » *Les Editions de Minuit* وقد أرادوا بهذه التسمية أن تكون رمزاً لعملهم في الخفاء تحت ستار الليل ليل الاحتلال الحالك؛ وقد وطدوا العزم على تبديد ظلماته حتى يظهر نور الحق ساطعاً متألقاً في سماء الحرية.

قامت هذه الدار بأعمال جليلة تطلبت شجاعة نادرة ورباطة جأش فائقة واستخفافاً بالأخطار الداهمة؛ إذ كانت تطبع الكتب في الخفاء وتنشرها بين الناس في الخفاء بل توزعها عليهم أحياناً دورهم رغم مطاردة الجستابو لهم ورغم صرامة العقاب الذي يهددهم؛ إذ كان الاعدام جزاء من يقع منهم في قبضة العدو. وكم من دماء طاهرة أريقت! وكم من نفوس بريئة أزهقت في سبيل القيام بهذا العمل الجليل! وما فتئت هذه الدار تنشر روائع الأدب الخفي من شعر ونثر بين قصة وبحث وقصيدة حتى جاء يوم التحرير، فظهرت بين الناس مجللة الهام وضاءة الجبين فخوراً بما أسدته من تشجيع وقت الذل، وبما أحيته من آمال وقت اليأس، وبما قدمته من تحف أدبية أثناء ضياع القيم الروحية، فخوراً لتردد صدى صوتها أيام الصمت.

وأنا الآن أعرض على القارىء العربي صفحة من روائع ذلك الأدب الخفي كانت مطوية، وأحدثه عن كتاب صدر لأول مرة في باريس في ٢٠ فبراير سنة ١٩٤٢ كان له أثر عميق في نفوس الفرنسيين فهز مشاعرهم وأثار همهم، وعمت شهرته فرنسا كلها بل تعدتها إلى العالم الخارجي، فنشر الكتاب في انجلترا باللغة الفرنسية أولا — وقد تسربت نسخة منه إليها أثناء الاحتلال — ثم نقل إلى الانجليزية فذاع صيته في العالم بأسره، وبادرت مجلة « لايف » الأمريكية بتقديمه إلى ملايين القراء الأمريكيين فأعجبوا به إعجاباً جماً.

أما عنوان هذا الكتاب فهو «صمت البحر» *Le Silence de la Mer* وأما مؤلفه فقد انتحل لنفسه اسم «فركور» Vercors وهو اسم مقاطعة فرنسية تسمى المؤلف باسمها إذ كان يقوم فيها بأعمال المقاومة السرية ضد الألمان. وغني عن القول أن جميع الكتاب الذين أسسوا دار « منتصف الليل » انتحلوا شتى الأسماء المستعارة لاخفاء شخصياتهم الحقيقية حتى لا يعرضوا أنفسهم للخطر.

وقد ظلت شخصية «فركور» سراً مكتوماً أثناء الاحتلال، ولم يهتد أحد من القراء إلى معرفة الرجل الذي يستتر تحت هذا الاسم المستعار، وقد ذهب الجمهور في سبيل التحقق منه مذاهب مختلفة، وظن أغلب الناس أنه لا بد كاتب معروف أو شاعر من الشعراء النابهين، مدللين على ذلك بطول باعه في الكتابة وجمال أسلوبه ورقة حسه. وقد خيبت الحقيقة هذا الاعتقاد فظهر أن « فركور » رسام لا كاتب، وأن كتابه « صمت البحر » أول عهده بالكتابة والتأليف؛ إذ لم يسبق له قبل الحرب أن خط حرفاً، فزاد هذا قراءه إعجاباً به.

ألف « فركور » قصته فى شهر أكتوبر من عام ١٩٤١ ، وهى قصة قصيرة إذ لا تزيد عن ستين صفحة يضمها كتيب صغير الحجم مفعم رقة وروعة .

أما هذه القصة فيرويها شيخ هرم يقطن مع ابنة أخيه الشابة منزلا بسيطاً فى إحدى المدن أو القرى الفرنسية قصد المؤلف عدم تعيينها ، فهى مدينة أو قرية تقع فى الريف ، وقد فرض عليه أن يضيف فى بيته المتواضع ضابطاً ألمانياً ؛ إذ كانت القيادة الألمانية تفرض النزلاء فرضاً على السكان الفرنسيين فى المدن الصغيرة التى لا يتوافر فيها مسكن مريح لرجالها .

جاءه ذات يوم ذلك الضابط الألمانى وأقام فى المنزل واستقر . كان « ورنرفون أبرناك » رجلا طويل القامة جميل الطلعة حسن الهندام . وقد اعتاد طوال مدة إقامته أن يقضى بعض الوقت فى المساء فى غرفة الاستقبال حيث كان يجلس الشيخ يدخن غليوناً وبجانبه ابنة أخيه تطرز ثوباً أو تقرأ كتاباً ، وكان « ورنرفون أبرناك » يظل واقفاً بقرب المدفأة يتحدث الليلة بعد الليلة حديثاً طويلا متنوعاً إلا أنه كان يتحدث دائماً وحده فلا يسمع إطلاقا صدى لصوته كأنه يقوم بدور تمثيلى فى مسرح خلو من النظارة ؛ إذ لم يشاطره الحديث أحد ولم يلتفت إليه أحد ، كأن لم يكن ثمة متكلم . والاصغاء إليه عبء يتحمله الشيخ والشابة دون حراك أو همس ، وكل منهما منهمك إما فى التدخين وإما فى التطريز إلى أن ينقطع الضابط عن الكلام من تلقاء نفسه ، ويختمه بقوله « أتمنى لكما ليلة سعيدة » ثم يأوى إلى فراشه .

ظل « ورنرفون أبرناك » يسترسل فى الحديث العذب يوماً بعد يوم ، يتناول تارة حبه لبلده ومسقط رأسه يصف جماله ، وتارة إعجابه بفرنسا وشغفه بأدبها وأمله فى نهضتها من عثرتها ووئامها مع ألمانيا ، وتارة أخرى يتحدث عن الموسيقى وولعه بها ولوعاً حدا به إلى أن يؤلف قطعاً موسيقية . هذا والشيخ منصرف إلى التدخين والفتاة لا تعيره — أو بالأحرى تبدو كأنها لا تعيره — أى اهتمام ؛ إذ كانت منكبة على تطريزها مطئطئة الرأس لا ترفع بصرها . ويظل شبح الصمت حائماً فى الغرفة لا يبدده إلا صوت الألمانى وحده إلى أن تحين ساعة النوم فيقول عبارته المألوفة : « أتمنى لكما ليلة سعيدة » .

اعتاد الألمانى أن يتحدث كل ليلة كأنه يحدث نفسه دون أن يعتريه كلل أو ملل . وكان أثناء حديثه يرمق الشابة بنظرات عميقة بل ينشب نظراته فيها آملا أن تفوه بكلمة واحدة أو ترنو بطرفها إليه وهى هى لم يتغير موقفها كأنها تمثال جميل لا أثر للحياة فيه تتمسك بأهداب صمت مطبق رهيب يشبه ظلام غابة موحشة ، لا تنفرج شفتاها عن كلمة أو ابتسامة .

كان ورنر رجلا عذب الحديث حلو الشمائل رقيق الشعور مرهف الحس ، كان موسيقياً يتحدث عن باخ وبيتهوفن حديثاً يدل على أن الموسيقى تملأ جوانبه وتهز مشاعره . كان يعتقد أن ألمانيا بعد أن هزمت فرنسا فى معركة شريفة سوف تمد لها يد الصداقة والمساعدة ، وأنها تنوى أن تعيش معها حياة هادئة مبنية على حسن الجوار ، كما كان يأمل أن تهذب فرنسا قليلا من غطرسة الألمان وتشذب غصونهم فتجعلهم يقلعون عن القسوة والعنف . وكان يعتقد بل يؤمن أن الحرب التى شنها هتلر فى أوربا يقصد بها خلق جو من الوئام والسلام بين القطرين المتجاورين ، فيكل أحدهما الآخر وتتوثق أواصر الصداقة والحب المتبادل بينهما .

ثم حدث أن تغيب ورنر فون أبرناك بضعة أيام وسافر إلى باريس ، واستمرت حياة الشيخ والفتاة كما كانت ، إلا أن شعوراً غريباً غامضاً خالجهما أثناء غياب الضابط الألمانى ولم يصارح أحدهما الآخر بأنه يفكر فى الغائب ويشعر بشىء من الأسف والقلق لانقطاعه عنهما ، وكأن

الفتاة كانت ترقب عودته بلهفة فى قرارة نفسها . وفى ذات يوم عاد الضيف وطفق يرمقها بنظرات ملؤها الأسى واللوعة والخيبة وهى منحنيـة الرأس تلف حول أصابعها خيوطاً من الصوف ثم قال بصوت عميق : « أريد أن أدلى بكلام خطير » فكفت الفتاة عن لف الخيوط ولأول مرة — نعم لأول مرة — رفعت رأسها وألقت على الضابط نظرات فاحصـة فألفته مضطرباً يحرك يديه حركات عصبية وتعلو وجهه أمارات الحزن وخيبة الأمل ، ثم فتح فاه وقال بصوت متهدج أجش : « إنى قابلت القوم المنتصرين فى باريس وتحدثت معهم فهزءوا بى وبددوا أوهامى وأفهمونى بعد أن أشبعونى سخرية وتهكماً أنهم يقصدون بهذه الحرب إخضاع فرنسا للأبد والقضاء على قوتها وروحها بل على روحها بنوع خاص ؛ إذ يرون الخطر كل الخطر فى بقاء روحها . أفهمونى أنهم ينوون خداعها بالوعود والابتسامات حتى تخضع لهم كما تخضع الكلبة الزاحفة . نعم قالوا هذا ، وقالوا إن مهمتنا الآن تنحصر فى تنفيذ هذه الخطة » ثم سكت الضابط منهوكا وقد تقلص وجهه وتنضت أساريره وأخذ يحدق فى الفتاة بنظرات جامـدة واستطرد بصوت خافت : « لا أمل ، لا أمل » . ثم عاوده الصمت من جديد وأجال بصره على صفوف من الكتب المرصوصة على رفوف المكتبة — كتب راسين وروسو وبروست وبرجسون — وقال صارخا : « إنهم سوف يطفئون الجذوة نهائياً ولن يضيء أوروبا هذا النور » . ثم قص مقابلته لأخيه فى باريس وقد كان شاعراً رقيق الحس قبل الحرب فألفاه الآن رجلا قاسياً لا يعرف للرحمة معنى ، وقد قال له ضمن ما قال عن الشعوب المغلوبة عامة والفرنسيين خاصة : « إننا سوف نجعلهم يبيعوننا روحهم مقابل طبق من العدس . إن واجبنا الآن أن نشيد لألف سنة مقبلة ، ولكن علينا أن نبدأ بالهدم » . ثم صرخ الضابط « إنه كفاح ، إنه كفاح جبار بين الجسد والروح » . ثم أطرق هنيهة وقال : « إنى طلبت من القيادة العليا نقلى إلى خطوط القتال الأمامية فى الميدان الشرقى وغداً أسافر . . . إلى الجحيم » . فاصفر وجه الفتاة وامتقع لونهـا واضطربت شفتاها وتصلب جبينها عرقا . ثم فتح ورنر فون ابرناك الباب واستند على الحائط وقال بصوت لا نبرة فيه : « أتمنى لكما ليـلة سعيدة » . ثم رد طرفه إلى الفتاة وظل يمعن فيهـا النظر طويلا وتمتم : « وداعا » وعيناه الجامدتان شاخصتان إلى الفتاة إلى أن حركت أخيراً شفتيها فلمع فى عينيه بريق غريب وسمعها تتمتم أيضاً « وداعا » ، فافتر ثغره عن ابتسامة حائرة وانصرف .

تلك قصة « فركور » ، وهى قصة رائعة لم يقصد من ورائها التهجم على الألمـان ورميهم جميعاً بالوحشية ، وإنما كشف فيها الستار عن شخصية شاب ألمانى رقيق الشعور صقلته الموسيقى فهذبت نفسه وملأت جوارحه عطفاً ونبلا ، وخدعته الدعاية المغرضة . ولما تبين الحقيقة سافرة وأدرك مبلغ الخداع الذى انطوت عليه جوارحه ، آثر أن يقذف بنفسه فى أتون الحرب فى الميدان الشرقى — فى الجحيم كما قال — حيث قد يلقى حتفه على أن يحيا ليرى انتصار القوة الغاشمة . أظهر المؤلف سجايا الضابط الحميدة وسعة آفاقه فى الحياة وسمو أفكاره ، كى يقيس بها بل يعكس عليها صورة سائر الغزاة وأغراضهم الحقيقية من الفتح ، قاصداً بذلك أن ينبه أذهان مواطنيه ويرفع عن أبصارهم غشاء الخداع الذى طفق الألمان ينسجونه بمهارة فائقة ليدخلوا فى روع الفرنسيين أنهم لا يضمرون لهم شراً ولا يكنون لهم ضغينة ، حتى تنطلى عليهم الحيلة فيصدقوا وعودهم المعسولة ويستسلموا لهم آمنين . وادعين وحينئذ ينقض عليهم الغزاة انقضاض النسر

على فريسته ، يسلبون الارواح ويعملون على إفناء تراث فرنسا الخالد وتشتيت شملها وتقطيع أوصالها إرباً إرباً . أراد « فركور » أن يميط اللثام عن حيل الألمان الغادرة حتى لا يُخدع بها الشعب الفرنسي كما خدع بها الضابط الألماني نفسه ، لكي يعتصم الفرنسيون بحبل الصبر ويغذوا نفوسهم بالآمال وكي يشحذوا هممهم ويقاتلوا العدو ما بقى فيهم رمق ، ويجتازوا محنتهم موفوري الكرامة .

وهي أيضاً قصة فرنسا المتألمة التي قهرتها القوة المادية الغاشمة فلم تخضعها ، بل احتفظت بروحها سليمة لم ينل منها العسف الذي أصاب جسدها ، ولم تمهد للظافر طريقاً للقضاء على فكرها الرفيع أو لافناء كنزها العقلي المجيد ، ولم يتطرق إليها الشك في مصيرها أو في مستقبلها ، ولم تتخل عن مثلها العليا ولم تترك لليأس سبيلا إلى قلبها ، وإنما صبرت وتجلدت وقاومت مقاومة سلبية وإيجابية مادية وروحية تجاوزت حدود طاقة البشر ، وتألمت وكافحت وتحملت وناضلت في صمت رهيب يخفي تيارات جارفة كصمت البحار .

وقد بين المؤلف أن العاطفة قد تغير الأفئدة فتملكها حيناً ، ولكن العقبات والحوائل الدنيوية لا تلبث أن تعوق نموها وتمنع ظهورها . فقد حاولت الفتاة بادئ ذي بدء كبت شعورها نحو الفتى الألماني لأنه كان ينتمي إلى قوم فاتحين ، ولأنه أحد الأعداء المغتصبين الذين جرعوا الفرنسيين كؤوس الذل والمرارة حتى الثمالة ، ولكن روحها هامت به إذ شغفت بشاعريته ورقة إحساسه وأعجبت بميوله الموسيقية الرفيعة ، فغلبها نبل أخلاقه وسمو تفكيره وسعة آفاقه فاستسلمت لحبها بعد أن كافحته طويلا ولكنها أسرته في نفسها وطوته في قلبها لم تفض به للفتى وهي موقنة بأن الفتى مدله في غرامه بها . وكلاهما لا يبوح للآخر بسره ، وكلاهما يشعر أنهما مؤتلفان روحاً وعقلا وأن أحدهما يكمل الآخر ، ولكن الفتاة لم تذعن لهواها ولم تخضع لغريزتها ، وآثرت أن تكتم حبها وتطويه في صمت عميق كصمت البحار . . .

فؤاد وصفي أبو الذهب